

من يعرض من أصناف الموحدين، وكانت لهم المقدمة على سائر الأصناف⁽¹⁾. وبعث الولاة من بني عبد المؤمن إليهم الأخبار المتجددة⁽²⁾. وفي طور ازدهار الدولة وقوة شخصية خلفائها وجدوا مجالاً للتنفذ ولكنه لم يصل إلى درجة التسلط، ويبدو أن رضى الأشياخ كان عاملاً هاماً في تولية الخلفاء في ذلك الدور من أطوار الدولة فقد علق ابن صاحب الصلاة على انتصارات يوسف بن عبد المؤمن على ابن همشك فقال: «وكان هذا سبباً في خلافته» لأنه نال رضى أشياخ الموحدين⁽³⁾. وكان الأشياخ أول من يبايع الخلفاء.

ونتيجة لسابقة قبائل هؤلاء الأشياخ في الدعوة، ثم إخلاصهم للخلفاء الأول من بني عبد المؤمن نال هؤلاء الأشياخ حظوة كبيرة ودرجة رفيعة، فتمكنوا من مقدرات الدولة، حتى خشيتهم الناصر، فنكبهم قبل موقعة العقاب، وكان ذلك من أسباب الهزيمة⁽⁴⁾. ولكن تلك النكبة لم تؤثر في قوتهم، ولما توفي الناصر، وتعاقب حكام ضعفاء تسلط هؤلاء الأشياخ، فكان الأمر والنهي بأيديهم، وصار أمرهم كالأثرak مع بني العباس⁽⁵⁾، حتى اضطر المأمون لإلغاء رسوم الدولة جملة واحدة. وإبطال المهديّة، في محاولة للقضاء على تسلطهم وتنفيذهم.

ومن دراسة المعلومات عن هيئة أشياخ الموحدين يستطيع المرء ملاحظة الآتي:

أولاً: لم يكن جميع الأشياخ في درجة واحدة من التميز. وقد كان أبناء أهل الجماعة وأهل خمسين أكثر حظوة من غيرهم من أبناء سائر الموحدين⁽⁶⁾،

(1) المن بالإمامة ص 410، 457 - 458.

(2) المصدر ذاته ص 390 - 392.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 53.

(4) المصدر ذاته ج 3 ص 240 - 241، روض القرطاس ص 169.

(5) روض القرطاس ص 163.

(6) المن بالإمامة ص 148، 324، 399 - 400، البيان المغرب ج 3 ص 85، الكامل ج 11

الأمر الذي يؤكد أن هيئة الأشياخ هي استمرار للمجالس الأولى.

ثانياً: جل من تردد اسمهم من أشياخ الموحدين كانوا من هنتاتة وأهل نينملل، ويبدو أن تمثيلهم القوي في هيئة أهل خمسين جعل عبد المؤمن يتحالف معهم، فلما آل الأمر إليه اعتمد عليهم.

ثالثاً: لم تتردد أسماء من هرغة بين أشياخ الموحدين، والظاهر أن محاولة إخوة المهدي للثورة على عبد المؤمن دفعت عبد المؤمن إلى إبعاد أشياخ هرغة عن المراكز الأمامية في الدولة، ولكن هرغة كقبيلة ظلت تعرض أول قبائل الموحدين في التمييز (العرض) لأنهم قبيل المهدي.

رابعاً: ظهر بين أشياخ الموحدين رجال من غير القبائل الست التي قام عليها الأمر أول مرة، خاصة من قبيلة كوميه، وهي قبيلة عبد المؤمن.

ومن الحقائق هذه يتضح أن فكرة الوراثة في الخلافة رافقتها وراثته في احتلال المراكز الممتازة في الدولة، وخير ما يصور ذلك الحظوة التي نالها أبناء أهل الجماعة وأهل الخمسين.

وأثرت الأحداث السياسية على مراكز القبائل فمن وال بني عبد المؤمن ارتفع ومن عاداهم انخفض. ولكن الهيئة الجديدة التي ضمت ممثلي القبائل للمشورة كانت أكثر استيعاباً للقبائل التي دخلت في الأمر فيما بعد وأخلصت لبني عبد المؤمن. ويبدو أن تكوين الهيئة الجديدة كان بغرض استيعاب غير المصامدة أيضاً في المشورة. فصدف عبد المؤمن عن الهيئة الأولى لأنها ارتبطت بتمثيلها للمصامدة على الغالب. وقد تم التحول عن الهيئة القديمة إلى الجديدة في تدرج وبطء شديدين مما جعل المؤرخين يغفلون أمره ولا يذكرونه. وأغلب الظن أن هذا التدرج البطيء كان نتيجة للوضع الشاذ الذي وجد عبد المؤمن نفسه فيه. لقد كان عبد المؤمن غريباً في المجتمع الذي كان يحكمه، وهذه الغربة هي التي قادته إلى استجلاب قبيلته إلى المغرب فيما بعد. وبسبب من هذه الغربة كان يتأني كثيراً في اتخاذ القرارات وتنفيذها، وعندما ينفذها يتبع

دبلوماسية لبقة في غير ضعف. وهذه الدبلوماسية وذلك التدرج حالا دون وقوع ردة فعل عنيفة ضد التغيير.

إن هيئة أهل خمسين كانت تلائم ظروف الموحدين في بداية أمرهم، لما كانت قبائلهم قليلة العدد، ومتجانسة الأصل، وتحصرهم رقعة من الأرض صغيرة. أما بعد الانتصار وقيام الدولة فقد ضم الموحدون أراضي شاسعة، سكنتها قبائل متعددة ومتباعدة، فكان على أولي الأمر أن يحدثوا تغييراً يتلاءم والظروف الجديدة، فكانت هيئة أشياخ الموحدين خير ما يناسب الوضع الجديد، إذ لا يحصرها عدد ولا يحدها نوع. وساعد وجود هيئة أشياخ الموحدين في تكوين هيئات استشارية على مثالها فظهرت هيئة أشياخ العرب، وهيئة أشياخ الجند الأندلسيين. وقد تردد ذكر الهيئتين خلال الأعمال الحربية وسيرد تفصيل ذلك في دراسة النظام السياسي.

إن أهل خمسين كمجلس تطور إلى هيئة جديدة، ولكن أهل الجماعة كمؤسسة تنفيذية لم يعد الخلفاء بحاجة إليها بعد قيام الدولة وتنظيمها، إذ أن الدواوين المختلفة أصبحت تشرف على تنفيذ الأوامر الصادرة عن السلطة السياسية. ومن هنا بدأ يظهر واضحاً وجلياً الفرق بين تنظيمات الموحدين كدعوة ونظم الموحدين كدولة، غير أن تنظيمات الدعوة هي التي كانت تمد نظم الدولة بالرجال الذين يقومون بالأعباء فيها.

الطلبة:

إذا وضح تأثير الأوضاع التي استجدت بعد وفاة المهدي على تنظيمات الموحدين التنفيذية والاستشارية، فما أثر الظروف على تنظيم الدعوة - الطلبة -؟. في بداية الأمر واصل عبد المؤمن سياسة المهدي فأرسل الطلبة دعاء إلى القبائل⁽¹⁾. وسوى هذا لا تذكر المصادر عنهم شيئاً خلال الفترة الأولى من حكم

(1) يذكر ابن القطان أن عبد المؤمن سار في حملة على بني [يفرن] عام 529 / 1135 لأنهم قتلوا =

عبد المؤمن حتى فتح مراكش، وبعد هذا التاريخ توفرت معلومات أولية عن دور الطلبة لا سيما من الرسائل الرسمية. وأهم الرسائل في هذا الصدد تلك الرسالة التي أرسلها عبد المؤمن إلى طلبة الأندلس سنة 543 / 1148⁽¹⁾، ومن رسالة أخرى أرسلها إلى طلبة صنهاجة تأسفرت تبين أنه قد بعث الرسالة الأولى إلى جميع جهات الموحدين⁽²⁾. ورسالة عبد المؤمن تبين دور الطلبة في المسؤولية التربوية والعلمية والإدارية والعسكرية والقضائية وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا ريب في أن هذا تحول كبير في الدور الذي قام به الطلبة بعد قيام الدولة عن الذي اضطلعوا به في أيام المهدي. وربما دفع عبد المؤمن إلى توسيع دور الطلبة أمران:

أولاً: إن قيام الدولة وسيطرتها على منطقة واسعة أوجب عزل كثير من موظفي الممرابطين واستبدال الموحدين بهم، وتربية الطلبة الخاصة وعلمهم أهلهم لتبوء تلك المراكز.

ثانياً: ربما هدف عبد المؤمن من تولية الطلبة في وظائف كثيرة تقليل الأعباء عن من بقي من أهل الجماعة وأهل خمسين وظل وفياً مخلصاً للخليفة.

ويجب عدم المبالغة في تصور تلك المسؤوليات، وقد لا تكون غير مسؤوليات صغرى، إذا أن كثيراً من أهل الجماعة وأهل خمسين قد تولوا في هذه الفترة مسؤوليات قيادية إدارية وعسكرية كما سبق توضيحه، وتقلصت هذه المسؤوليات بعد أن جعل عبد المؤمن الحكم وراثياً في عقبه، والمعلومات المتوفرة تصور دور الطلبة الغالب في المجال العسكري مما يؤكد ذلك أن أسماء الطلبة كانت تنبت في زمام العسكرية للمواساة⁽³⁾.

= أحد الدعاة أنظر نظم الجمان ص 212.

(1) راجع الرسالة في نظم الجمان ص 150 - 167.

(2) رسائل موحدية ص 6.

(3) المن بالإمامة ص 208.

وقد تواترت الأخبار عن مسؤولياتهم العسكرية في الجيش والأسطول. وكان الطلبة يشاركون في قيادة الجيش في منطقتهم⁽¹⁾، وإذا أراد الخلفاء تسيير حملة إلى جهة ما كانوا يستشيرون طلبة تلك الناحية⁽²⁾، وإذا ما بعثوا قائداً من الحضرة إليها كانوا يطلبون من طلبتها التعاون معه⁽³⁾. وربما أخذوا رأيهم في المنشآت ذات الطابع العسكري، فقد أشرك عبد المؤمن طلبة غرناطة وإشبيلية في اللجنة التي كلفها بالإشراف على بناء مدينة جبل الفتح لتكون قاعدة للأعمال الحربية في الأندلس⁽⁴⁾.

إن القول بمشاركة الطلبة في قيادة الجيش لا يعني أن القيادة الأولى كانت لهم. لقد كانت القيادة العليا في الولاية لواليتها ولكنه قد يستنيهم في قيادة بعض الحملات⁽⁵⁾، وكانت القيادة خلال الحملات العسكرية لمن تعينه الحضرة، وقد يوكل أمر حملة فرعية إلى بعض الطلبة⁽⁶⁾.

أما الأسطول فقد كان إشراف الطلبة عليه أكبر من الجيش. فالطلبة هم المشرفون عليه، وهم الذين يعدونه ويقودونه ويسمون بطلبة الأسطول⁽⁷⁾.

وهناك إشارة واحدة تتعلق بمسؤولية الطلبة الإدارية - بعد أن ولي عبد المؤمن ابنه عهده - وهي تعيين المنصور طلبة للإشراف على أمور قفصة بعد أن استردها (1187/583)⁽⁸⁾ وهي إشارة عامة والأمور قد تكون عسكرية الطابع.

وهناك اعتراض هام على النتيجة التي وصلنا إليها عن مسؤولية الطلبة بعد

(1) رسائل موحدية ص 74، 80، 102، 174، 221، 222.

(2) المصدر السابق ص 147.

(3) المصدر ذاته ص 379.

(4) رسائل موحدية ص 97 / 98، المن بالإمامة ص 138، 139، البيان المغرب ج 3 ص 43-44.

(5) المن بالإمامة ص 147-148.

(6) رسائل موحدية ص 102.

(7) رسائل موحدية ص 173، 174، 177.

(8) المصدر ذاته ص 215.

إعلان الحكم الوراثي، ولرب قائل يقول ولكن الرسائل التي بعثها خلفاء عصر الازدهار كانت موجهة إلى الطلبة وهي تتضمن سياسة الدولة الرسمية في شتى ضروب الحياة. والناحية العسكرية فرع واحد منها، فكيف يصح مثل هذا الاستنتاج والرسائل بين أيدينا؟.

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي توضيح أمرين:

أولاً: أن الرسائل المتعلقة بالمسائل الإدارية كانت أغلب قبل إعلان الحكم الوراثي، أما بعده فقد كانت أغلبية الرسائل تدور حول إعلام بنصر عسكري، أو قضاء على فتنة، أو توجيه في أمر عام، أو حض على أمر بمعروف أو نهى عن منكر.

ثانياً: لم توجه الرسائل إلى الطلبة وحدهم فقد خوطب بها الأشياخ والأعيان والكافة وقد جاء الطلبة على رأس المخاطبين وربما علمهم السابق الذي نالوه في حياة المهدي جعلهم أول المخاطبين.

ومن هنا فالراجح أن غالبية الرسائل قصد منها الدعاية لأعمال الدولة، والتركيز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما كان الطلبة أول المخاطبين فأغلب الظن أنهم قاموا إلى جانب مهامهم العسكرية بواجبات الدعاية لأعمال الدولة، وبفروض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فباشروا دور المحتسب في المجتمع الذي وجدوا فيه. ومما يؤكد ذلك أنه لم يرد ذكر الحفاظ - فيما أعلم - بين من بعثت إليهم الرسائل، وقد أشارت الروايات إلى وجود الطلبة جنباً إلى جنب مع الحفاظ في عدد من المناسبات⁽¹⁾. الأمر الذي يدل على أن تنظيم الطلبة لم يبلغ بعد قيام تنظيم الحفاظ الذي تولى الدور الإداري الأول، والقيادة العسكرية العليا. وإذا قام الطلبة بتصرف مسؤوليات ثانوية بعد إعلان الحكم الوراثي فإن كثيراً من المسؤوليات الكبرى تولاهما نمط جديد من الطلبة تكون من «الحفاظ وطلبة الحضر».

(1) المن بالإمامة ص 118-119، 148، 451.

الحفاظ:

لم تذكر الروايات تاريخ قيام هذا التنظيم، ولكن يمكن تحديد ذلك في شيء من الدقة. لقد روي أن أبناء عبد المؤمن كانوا بين هؤلاء الحفاظ، ولما أتموا دراستهم ولأهم والدهم الولايات⁽¹⁾ في ربيع الأول 551 / 1156⁽²⁾، وكانت مدة الدراسة ستة أشهر⁽³⁾، وعلى هذا فإن تاريخ بداية هؤلاء الحفاظ كان سنة 550 / 1155 على أبعد الاحتمالات.

والى جانب أبناء عبد المؤمن كان فيهم أبناء أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل الدار، إذ تشير الروايات فيما بعد إلى حفاظ أهل الجماعة وحفاظ أهل خمسين وأهل الدار⁽⁴⁾ وانتخب عبد المؤمن نجباء الأولاد من المدن مثل إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان⁽⁵⁾. واجتمع له نحو ثلاثة آلاف صبي⁽⁶⁾، وكان عدد الذين توجهوا من إشبيلية وحدها خمسين صبياً⁽⁷⁾.

ويحصر صاحب كتاب الأنساب الحفاظ في قبائل الموحيدين الأولى⁽⁸⁾، غير أن صاحب الحلل الموشية - وروايته أكثر استفادة من غيره في هذا الموضوع - يذكر أن هؤلاء الصبية كانوا من المصامدة وغيرهم⁽⁹⁾، وهذا ما تؤيده أسماء عدد من الحفاظ من القبائل الأخرى تولوا أعباء الحفاظ مثل الولاية على جهات بعض الولايات، خاصة حفاظ كومية⁽¹⁰⁾.

(1) الحلل الموشية ص 125-126.

(2) رسائل موحدية ص 66، البيان المغرب ج 3 ص 34.

(3) نظم الجمان ص 140.

(4) على سبيل المثال أنظر أخبار المهدي ص 48، المن بالإمامة ص 400.

(5) نظم الجمان ص 140.

(6) الحلل الموشية ص 125.

(7) المصدر الم: ص 139.

(8) أخبار المهدي ص 48.

(9) الحلل الموشية ص 125.

(10) انظر البيان المغرب ج 3 ص 119.

وتحرى عبد المؤمن أن يكون الصبية في سن متقارب لتسهيل سرعة الحفاظ عليهم، وتيسر عملية تربيتهم في وقت واحد، فجاءوا وكانهم أبناء ليلة واحدة⁽¹⁾. واختار لتعليمهم خيار أشياخ البلاد من الفقهاء والطلبة والكتاب والشعراء⁽²⁾. وأشرف بنفسه على تربيتهم وكان يجلس إليهم كل يوم جمعة⁽³⁾.

ووضع لهم منهجاً يجمع بين التربية النظرية والعملية، فدرسوا توافيق المهدي في التوحيد والفقه، والقرآن، وصحيح مسلم⁽⁴⁾. ويقول أشياخ أنهم درسوا عدة كتب في إدارة الولايات⁽⁵⁾. وفي التربية العملية أخذوا «يوماً بتعليم الركوب ويوماً بالرمي بالقوس ويوماً بالعموم في بحيرة صنعها [عبد المؤمن] خارج بستانه»⁽⁶⁾ وفي تلك البحيرة علمهم التجذيف على قوارب وزوارق صنعها لتلك الغاية. وكانت سائر نفقاتهم عليه⁽⁷⁾.

وواضح من هذا المنهج الدراسي أن عبد المؤمن أراد أن يُخرج رجالاً يلمون بالأفكار الأساسية للدعوة الموحدية ليحتلوا الوظائف الكبرى في الإدارة والجيش والأسطول فعزل أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة، وأبقاهم للمشورة، وعين هؤلاء الحفاظ مكانهم، فتردد ذكرهم في القيادة العسكرية⁽⁸⁾، وولاية الولايات⁽⁹⁾ أو أقسام منها⁽¹⁰⁾ في مختلف أطوار دولة الموحيدين. وهذا ما يدعوا إلى إهمال رواية ابن القطان إذ يقول أن طلبة إشبيلية رجعوا إلى آبائهم⁽¹¹⁾.

(1) الحلل الموشية ص 125.

(2) نظم الجمان ص 133.

(3) المصدر السابق ص 125.

(4) نظم الجمان ص 133، 140، الحلل الموشية ص 125.

(5) تاريخ الأندلس ص 302.

(6) نظم الجمان ص 132، الحلل الموشية ص 125.

(7) المصدران ذاتهما ص 140، ص 125.

(8) المن بالإمامة ص 182، 370-371، 397-398، البيان المغرب ج 3 ص 84.

(9) المن بالإمامة ص 126-127، 390.

(10) المصدر ذاته ص 336، 337، 392، البيان المغرب ج 3 ص 119، 153، 235.

(11) نظم الجمان ص 140.

إلا إذا كان الرجوع أمراً مؤقتاً أو كان العدد في بداية الأمر أكبر من حاجة الدولة وربما استوعبوا في العمل في وقت آخر.

ومن الأعباء التي قام بها هؤلاء الحفاظ يتضح أن من أطلق عليهم «صغار الطلبة»⁽¹⁾ ربما قصد بداية نشاطهم لا تعيين وظيفتهم. وكيف ما كان الأمر فإن عبارة «صغار الطلبة» توهم أن هؤلاء الحفاظ أقل من الطلبة درجة وقد كان الواقع بخلاف ذلك. والراجح أن كلمة «حافظ» جاءت من حفظ موطأ ابن تومرت وعقائده⁽²⁾.

لقد هدف عبد المؤمن من تنظيم الحفاظ تولية أبنائه الأمر، وتعيين من يثق فيهم الولايات. وهذا تحول خطير في سياسته، وتعديل كبير في مراكز تنظيمات الموحيدين فما هي البواعث عليه.

واضح من تاريخ نشأة هيئة الحفاظ، أن ذلك جاء بعد إعلان الحكم الوراثي وثورة أخوي المهدي، الأمر الذي يدل على أن عبد المؤمن أراد أن يحدث تغييراً جذرياً في إدارة الدولة، وكان عليه أن يبدأ أولاً بتنظيمات الموحيدين، ويُخَرِّج جيلاً ولاؤه له أولاً وأخيراً. ولكيلا يشير حفيظة الموحيدين أولي السبق والفضل جعل أبنائهم ضمن الحفاظ. ويبدو أن فساد بعض عناصر الموحيدين أعطى عبد المؤمن فرصة لتبرير التغيير فأشار إلى هذا الفساد في خطابه إلى طلبة الأندلس - المشار إليه آنفاً - إذا يقول «وقد اتصل بنا... أن من لا يتقي الله تعالى ولا يخشاه... يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار... ويستحلون حرمت المسلمين من غير حلها ويسارعون إلى نقض الشرع...»⁽³⁾.

وهكذا مع تغير الأوضاع السياسية تبدلت تنظيمات الموحيدين، وإذا قام أمر هيئة أشياخ الموحيدين على الوراثة فتولى أبناء أولي السبق والفضل من الموحيدين مكانهم فلا نعلم الحال بين الطلبة الذين احتلوا وظائف صغرى بعد ظهور الحفاظ. أما

(1) نظم الجمان ص 28، الحلل الموشية ص 89.

(2) راجع المن بالإمامة ص 294، 299.

(3) نظم الجمان ص 153-154.

الحفاظ فواضح من المجموعات التي ذكرت بينهم أن عبد المؤمن راعى مبدئين: الوراثة والمؤهلات: الوراثة في حالة أبنائه وأبناء أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل الدار، والمؤهلات في حالة نجباء الأولاد المختارين من مختلف الولايات. ولا يعلم أن تربية حفاظ جدد قد حصلت والراجح أن أبناء الحفاظ توارثوا مكانة آبائهم بعد وفاتهم.

طلبة الحضرة:

لم يكن تقلص مهام الطلبة بسبب تشكيل تنظيم الحفاظ فحسب، إذ يبدو أن المهمة العلمية قد انتقلت من طلبة الموحيدين إلى عنصر جديد بعد فتح مراکش بأمد قصير.

لما استقر الأمر لعبد المؤمن بعث يستجلب العلماء من أهل كل فن، فجاءه العلماء والفقهاء والشعراء والفلاسفة والخطباء، ونزلوا حضرته، واستقروا فيها، وتفريقاً لهم عن طلبة الموحيدين سماهم طلبة الحضرة واقتدى خلفاؤه به وساروا على نهجه⁽¹⁾ فحرصوا على تنمية الهيئة الجديدة. ويبدو أن تكوين هذه الهيئة كان مظهرًا من مظاهر الملك، وكانت بداية طلبة الحضرة بسيطة، ووضعهم ضعيفاً، ولم يدخلوا نظم الدولة ولا تنظيمات الحزب، يذكر ابن القطان في مكارم عبد المؤمن... أنه... أحس بضعف طلبة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضرة منهم أبو محمد المالقي وغيره فقال لأشياخ الموحيدين أعزهم الله تعالى هؤلاء طلبة غرباء ضعفاء، والإقلال عليهم ظاهر، فترى أن ندفع إليهم مالاً نقارضهم فيه، ويتجرون به، ويردون السلف لنا، فقالوا: نعم، فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد منهم فاكسبوا منها، وكانت أصل غناهم⁽²⁾. ولكن هذا الوضع بدأ يتبدل ويتغير مع مر الأيام فانتسح عمل هؤلاء الطلبة لما انتحلوا التوحيد مذهباً، فصاروا جلساء للخلفاء في مجالس علمهم والمشرفين

(1) المعجب ص 200-201، 342 وعن ضم شخصيان تميزت بالعلم إلى مجالس «طلبة الحضرة» (اختصار القدح ص 138، الإحاطة ج 1 ص 190).

(2) نظم الجمان ص 137-138.

على تدريس العلم ونشره، ولا سيما، التوحيد على مذهب ابن تومرت⁽¹⁾. وقد أوكلت إليهم مهمة الدفاع عن مذهب ابن تومرت التوحيدي، فطلبة الحضرة هم الذين وجهوا التهم إلى ابن رشد الحفيد بجامع قرطبة وأشهدوا الملاء على مروقه من الدين⁽²⁾. هذا فضلاً عما كانوا يقومون به من خطابة في مناسبة زيارة أو بيعة أو تجديدها⁽³⁾.

وكان هؤلاء الطلبة منظمين تنظيمًا دقيقاً وعلى قمة ذلك التنظيم شيخهم أو مزوارهم⁽⁴⁾ وهو حلقة الوصل بينهم وبين الخليفة⁽⁵⁾. والراجح أن طلبة الحضرة كانوا على درجات، فمنهم الأشياخ ومنهم العموم، وربما كان ابن صاحب الصلاة يشير إلى ذلك فيقول عن يوسف «وقرب أشياخ طلبة الحضرة»⁽⁶⁾. وربما كان لهم دار اجتماع خاصة يفحصون فيها العلماء الوافدين على الحضرة⁽⁷⁾.

ونال طلبة الحضرة مكانة عالية في الدولة، فحباهم الخلفاء بالعطاء الكثير والمال الوفير⁽⁸⁾، وبسبب من هذه الحظوة حسدهم الموحدون حتى قال المنصور «يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا: مهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ ينتسبون» وعلق المراكشي «فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالعالم الموحدون في برهم وإكرامهم»⁽⁹⁾.

(1) المن بالإمامة ص 228-230.

(2) البيان المغرب ج 3 ص 202، عنان ق: 2 ص 224-225 نقلاً عن مخطوط الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي.

(3) المن بالإمامة ص 150، 352، البيان المغرب ج 3 ص 121.

(4) وهذا المصطلح سبرد مع هيئة أشياخ الموحدين (أبناءه ص 145 - 146).

(5) راجع البيان المغرب ج 3 ص 370، عنوان الدراية ص 21.

(6) المن بالإمامة ص 234.

(7) يذكر الغبريني عرضاً بيت الطلبة في مراكش (عنوان الدراية ص 161) وقد لا يكون الطلبة إلا طلبة الحضرة.

(8) المعجب ص 200، البيان المغرب ج 3 ص 121.

(9) المعجب ص 280.

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية فهو يوضح أن طلبة الحضرة كانوا من غير الموحدين، ولئن بدأ تنظيمهم أيام عبد المؤمن فإن نفوذهم أصبح واسعاً في عهد خلفائه حتى خشيهم الموحدون فتشكوا من ذلك.

ويدل على مكانة هذا الجهاز الجديد ما لقيه شيخ طلبة الحضرة من بر وتكرمة، فإن أبا الحسن الإشبيلي كان أول من يدخل على يوسف وآخر من يخرج، وكان يشفع في الغرباء والطلبة⁽¹⁾. وكان خلفه أبو محمد عبد الله المالقي عند يوسف في مسلاخ وزير وأمين⁽²⁾. وقد يكون شيخ طلبة الحضرة في اللجان التي تمتحن العمال الخائنين⁽³⁾.

ويروي صاحب كتاب الأنساب أن الناصر أسقط عن طلبة الموحدين السلاح⁽⁴⁾، ويفرق صاحب كتاب الأنساب بين طلبة الموحدين وطلبة المصامدة في روايته وقد لا تعني عبارة طلبة الموحدين عنده إلا طلبة الحضرة. وروايته هذه تدل على أن «طلبة الحضرة» كانوا يعملون في الجيش إلى جانب وظيفتهم العلمية، غير أن العمل العسكري أسقط عنهم في أيام الناصر، ومن ثم صار العلم وظيفتهم الأولى والأخيرة.

إن تكوين هذه البيئة يمثل أصدق تمثيل محاولة الموحدين لتغيير تنظيماتهم لتتلاءم مع الظروف المتجددة المتغيرة. ومنذ البداية، حاول عبد المؤمن أن يستوعب العلماء من غير الموحدين، ليرفع من قدر دولته في نفوس الناس، ولا سيما وأن أهل العلم تمتعوا بمكانة رفيعة في المجتمع وبخاصة في الأندلس⁽⁵⁾. ومع الزمن دخلوا تنظيمات الموحدين، ومؤهلهم إلى ذلك العلم الذي درسه والعلم كان الركيزة الأولى للدعوة الموحدية ثم الدولة.

(1) المن بالإمامة ص 219، 421.

(2) المصدر ذاته ص 410.

(3) المصدر ذاته ص 453.

(4) أخبار المهدي ص 48.

(5) نفح الطيب (ط. الرفاعي) ج 2 ص 106.

الموقف من غير الموحدين:

إن خطة استيعاب أهل العلم من غير الموحدين في التنظيمات الموحدية تطرح علاقة الموحدين بغيرهم في بساط البحث. فما هو موقفهم منهم؟.

كانت علاقة الموحدين بغيرهم في أيام ابن تومرت علاقة عدااء وحرب. وتغيرت تلك العلاقة بعد قيام الدولة. إن الناس الذين خضعوا للحكم الموحدية ولم يعارضوا الأفكار التومرتية - على الأقل في الظاهر - استوعبهم الموحدون في نظم دولتهم دون تنظيماتهم. وتولى بعضهم القيادة العسكرية مثل ابن خيار الجياني وإبراهيم بن بزاز المسوفي وزيري بن ماخوخ الزناتي⁽¹⁾، ويوسف بن مردانيش وابن همشك وابن عزون⁽²⁾، وأشياخ العرب الهلالية⁽³⁾. وقام بعضهم بتصريف «إدارية» مثل أبناء ابن مردانيش والحسن بن علي صاحب المهديّة، وعلي بن الرند النائر بققصة⁽⁴⁾. وواضح أن كل هؤلاء كانت لهم مكانة عالية في مجتمعهم قبل أيام الموحدين فاستيعابهم في نظم الدولة لم يكن إلا بقصد التآلف حيناً والاستفادة من خبراتهم حيناً آخراً. فالمصلحة - والحالة هذه - هي التي وجهت سياسة الموحدين في هذا الاتجاه وكانت هي باعث التغيير.

إن التغيير الذي طرأ على مفهوم «التوحيد» بعد فتح مراکش ساعد على استيعاب العناصر التي خضعت لسلطة الدولة الموحدية. فقد كان مفهوم «التوحيد» دينياً في بداية الأمر ولكن بعد قيام الدولة غدا مفهوم «التوحيد» سياسياً إذ اعتبر الخلفاء منذ عهد عبد المؤمن أن الخضوع لسلطة الدولة هو التوحيد⁽⁵⁾.

(1) رسائل موحدية ص 97-98، المن بالإمامة ص 138-139، البيان المغرب (ط. دار الثقافة) ج 4 ص 100، ط. هوسي ج 3 ص 19-20، أعمال الأعلام (ط. ليفي) ص 265.

(2) المن بالإمامة ص 499، 503.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 150، روض القرطاس ص 148.

(4) الاستبصار ص 151، 156، الكامل ج 11 ص 245، نهاية الأرب ص 213.

(5) هناك أمثلة كثيرة راجع رسائل موحدية ص 152، أخبار المهدي ص 120، المن بالإمامة ص 175، 377، 388-390، البيان المغرب ج 3 ص 82، العبر ج 6 ص 519.

والخروج على الخلفاء مروق منه⁽¹⁾ وقد شرح عبد المؤمن هذا المفهوم الجديد في رسالته التي بعث بها إلى الولايات سنة 443 / 1148 فقال للطلبة والأشياخ «ولتعلموا - رعاكم الله - أن من شملته كلمة التوحيد في العهد القريب أو البعيد، في مضمار واحد من العدل محمولون، وأنكم عن كل من هنالك مسؤولون، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً»⁽²⁾.

ورافق هذا المفهوم الجديد تغيير في ترتيب طبقات كافة الموحدين فقد قسم عبد المؤمن الموحدين إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: السابقون الأولون الذين بايعوا الإمام المهدي وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه وأدركوا البحيرة واشتركوا فيها.

ثانياً: من دخل بعد البحيرة إلى فتح وهران 539 / 1145.

ثالثاً: من انتظم في سلك الموحدين بعد ذلك⁽³⁾.

ويلمح في هذا الترتيب الجديد للموحدين نوع من الاقتداء بما فعله عمر ابن الخطاب لما تولى الخلافة وقسم المسلمين درجات حسب سبقهم في الإسلام.

أما المسلمون الذين أبدوا عدااء لأفكار الموحدين، فقد حاربوا واضطهدوا. ويكفي الإشارة إلى ما لقيه أتباع المذهب المالكي من عنت أيام المنصور، فقد أحرق الموحدون كتب ذلك المذهب⁽⁴⁾، وامتنحوا المشتغلين بتدريسه⁽⁵⁾.

وكان حال أهل الذمة من يهود ونصارى أسوأ الأحوال، فقد لقيوا عنتاً

(1) رسائل موحدية ص 44.

(2) نظم الجمان ص 166.

(3) رسائل موحدية ص 47-55.

(4) المعجب ص 278-270.

(5) ابن شريفة ص 24 نقلاً عن مخطوط الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي.

شديداً، وضيقاً عظيماً، ولم تنعقد لهم ذمة عند الموحدين فاضطروا إلى إظهار الإسلام⁽¹⁾، ولم يجد إظهار الإسلام بعضهم فتيلاً، ويروى أن المنصور كان شاكاً في إسلام اليهود فمَيَّزهم بلبس خاص، ورفض الناصر إلغائه ولكنه عدل⁽²⁾ وهذا الموقف من أهل الذمة يفسر تجاوبهم مع المأمون - الذي ألغى رسوم المهدية - ثم ابنه السعيد في بداية أمره⁽³⁾. وعلى الرغم من كل هذا فقد استخدم الموحدون جنداً رومياً نسبة لحاجة الدولة إليهم.

إن موقف الموحدين من غيرهم لم يكن ثابتاً جامداً، وشهد تغييراً مستمراً في حالات معينة تجاوباً مع ما استجد من ظروف وتغير من حال، مما يؤكد مرونة الموحدين في التكيف مع الأوضاع المختلفة.

التربية في هذه الفترة.

إن الروح التي نفخها المهدي في أتباعه لا يمكن أن تضعف بين عشية وضحاها، وما حدث من ردة بعد وفاته، كان سحابة صيف فانقضت، وواصل الموحدون سيرتهم الأولى. ويقول ابن عذاري عن حالهم مع عبد المؤمن: «وكان الرجل يقاتل... أباه وأخاه في داره، إذا تخلف عن اتباع المهدي ويكفر بعضهم بعضاً»⁽⁴⁾.

واصل عبد المؤمن خطة إمامه وتعهد غرسه بالري الدائم، ولما فتح مراكش استدعى إليها قبائل الموحدين، وأخذهم في شيء من الشدة في أمر العلم والتوحيد والقيام بالفروض الدينية⁽⁵⁾، وعمم نظام التربية على كافة الناس في دولته⁽⁶⁾، ولم يقبل من العامة بأقل من أم الكتاب وسور من القرآن وقراءة

(1) المعجب ص 305، نهاية الأرب ص 217.

(2) المعجب ص 304-305، البيان المغرب ج 3 ص 205.

(3) المعجب ص 304-305، البيان المغرب ج 3 ص 205.

(4) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) ج 4 ص 85.

(5) إطل موحدية ص 53-54.

(6) رسالة الفصول في رسائل موحدية وأخبار المهدي

عقيدة المرشدة وحفظها وفهمها، وأكد على إداء الفروض الدينية وسار خلفاؤه على نهجه. ويبدو أن هذه السياسة استمرت حتى أيام يوسف المستنصر خامس الخلفاء الموحدين بالمغرب الذي أرسل في ربيع الأول 617 / 1220 يحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أخذ العامة باعتياد المساجد ومطالبتهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق⁽¹⁾.

وراعى عبد المؤمن في تربيته للموحدين المهام التي سيكلف بها المتعلم. إن الذي طلبه من العامة غير الذي حدده للخاصة⁽²⁾. والنظام التربوي الذي وضعه للحفاظ - وسبق شرحه - خير شاهد على ذلك. إن التخصيص في الوظائف كان سياسة عبد المؤمن الغالبة فجاءت التربية مراعية لتلك السياسة. فأسس عبد المؤمن مدرسة الحفاظ لتخريج إداريين وقادة إداريين وقادة كبار تميزوا بالعلم، فقد شيد مدرسة في الرباط لتخريج قادة الأسطول⁽³⁾. وربما كان هذا الاتجاه التخصيصي بدأ أيام المهدي ولكن مع عبد المؤمن برز بوضوح لتشعب مشاكل الدولة واختلاف ظروفها.

لقد سبق القول بأن تربية الموحدين كانت تعتمد أساساً على عزلة شعورية، ولا ريب في أن هذه العزلة بدأت تضعف بعد قيام الدولة لأن العزلة في البداية كانت عزلة أقلية في «بحر» من الأعداء ولكن بعد قيام الدولة أصبح «الموحدون» هم أصحاب المجتمع الجديد.

وتدريجياً بدأت العزلة تزول من النفوس، بفعل الزمن والتحضّر، والانفتاح على الآخرين، فبدأ الإيمان يضعف والشك يساور النفوس، وحدث هذا في أعلى مستويات الدولة، وصرح المنصور لخاصته بشكه في عصمه الإمام. وإن كان هذا حال الخليفة فكيف بعامة الناس. وضعف الإيمان بالفكرة هذا هو

(1) البيان المغرب ج 3 ص 245.

(2) راجع رسالة الفصول المشار إليها آنفاً.

(3) المنوني: العلوم والآداب والفنون ص 21 نقلاً عن مقدمة الفتح.

حرك لجميع أحداث دور الانحلال. ففي هذا الدور ضعف أمر التنظيمات
الجزئية والنظم الحكومية، وهذا الارتباط بين ضعف الإيمان بالفكرة في نفوس
أتباعها والاختلال في التنظيمات والنظم ظاهرة من أهم ظواهر فترة الانحلال مما
يؤكد الارتباط الوثيق بين قدرة التنظيم ونوعية الإنسان.

هذا سيدور معقول الدائم على
٧١

الفصل الثالث

النظام السياسي

إن الجهاز السياسي لدولة الموحدين تكوّن من الخليفة ومجالسه الاستشارية. والخليفة كان يتخذ القرارات بمشورة تلك المجالس أو بموافقتها، وتقوم المؤسسات التنفيذية في الإدارة والخطط الدينية والجيش بتنفيذ ما يقع تحت سلطاتها. وقد كان هذا النظام هو الغالب في دولة الموحدين في مختلف أطوارها، إلا في حالات ضعف خليفة من الخلفاء واستبداد آخرين بسلطاته. فما الخلافة الموحدية وما مجالسها الاستشارية؟.

الخلافة:

تعيددت الدول الخلافية في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وكان المغرب الكبير مهد أول خلافة منافسة لبني العباس لما نجح الفاطميون في تأسيس دولتهم في إفريقية، وفتحوا الباب لأمويي الأندلس فأعلنوا خلافتهم بعيد ذلك. غير أن المغرب الأقصى - مركز دولة الموحدين - لم تقم فيه خلافة مستقلة، فقد خضع لسلطة هذه الخلافة، أو تلك. ولما تأسست فيه دولة قوية على يد المرابطين وضمت الأندلس وأجزاء من المغرب الأوسط، لم يدع المرابطون الخلافة، واعترفوا بسلطة بني العباس، وتلقب أميرهم بأمير المسلمين، ولم يطمح أحد منهم لإمرة المؤمنين⁽¹⁾.

ولما قامت الدولة الموحدية لم يعترف حكامها بخلافة العباسيين أو الفاطميين، وأقاموا خلافة جديدة. فكيف نشأت خلافتهم؟.

(1) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) ج 4 ص 27-28، 46، الحلل الموشية ص 71-73.

نشوء الخلافة الموحدية :

قبل أن يستقر نظام الخلافة الموحدية على أسس ثابتة مرت الدولة الموحدية بطورين: أولاً دور المهديّة، ثانياً دور الخلافة. وقد كانت الخلافة شوري في بداية عهدهم، ولكن لما استقرت دولتهم تحولت الخلافة إلى النظام الوراثي وكل دور من هذه الأطوار تميز بخصائص معينة. ومن المفيد أن تتبع هذه المراحل، وتبين خصائص كل منها.

دور المهديّة :

كان ابن تومرت قبل إعلان مهديته يتلقب بالإمام⁽¹⁾، ولما أصبح مهدياً كانت الإمامة نتيجة لها، إذ أن المهدي لا يكون إلا إماماً، وأصبح لقبه «الإمام المعصوم والمهدي المعلوم»⁽²⁾. ولا نجد استثناء لهذا اللقب، إلا ما يذكره ابن القطان من أن ابن تومرت كتب في أحد وجهي لوائه «المهدي خليفة الله»⁽³⁾. وكلمة «خليفة» هنا لا تعني إلا الإمامة نفسها، لأن خلافة الله هي النيابة عنه، والحكم في الناس بتفويض منه، مثل خلافة داود إذ قال له ربه ﴿يا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ الآية⁽⁴⁾. فلم استنكف ابن تومرت عن لقبَي أمير المؤمنين والخلافة عن الرسول ﷺ؟

لقد عدّ ابن تومرت نفسه إماماً في موكب الأئمة من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام بتفويض من الله واختيار منه⁽⁵⁾، وإمرة المؤمنين أو خلافة النبي لا تكونان إلا بوصية من سلف أو اختيار من جماعة، وإذن فهو ليس بخليفة للنبي وإن جاء ليجدد دينه، وليس بأمير للمؤمنين وإن وجب عليهم السمع والطاعة له، فهو إمام باختيار من الله.

(1) العبر ج 6 ص 47.

(2) لقد ركز ابن تومرت على اللقبين في كتاباته أنظر أعز ما يطلب ص 245 وما بعدها.

(3) نظم الجمان ص 128.

(4) سورة «ص» آية 26.

(5) أعز ما يطلب ص 243-248، 250.

ولكن ابن تومرت لم يجعل إمامته فوق مقام النبوة أو في مرتبتها، لأن رسالته هي تبليغ أمر الله الذي جاء به رسوله محمد ﷺ، فما أمر الله به على لسان نبيه قد أمر به، وما نهى عنه قد نهى عنه⁽¹⁾. ولهذا كان شعاره في لوائه الألف الذكر هو «الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله».

ولما كان المهدي معصوماً من الباطل والضلال والفساد والبدع والكذب والجهل⁽²⁾ فقد وجبت طاعته في كل أمر، إذ أن سلطاته مطلقة، لا يحدها إلا الكتاب والسنة، وهو المفسر لهما⁽³⁾. وإذن فالحاكم الموحد في دور المهديّة لا يختاره البشر وإنما يفوضه الله، وسلطاته مطلقة.

دور الشوري في الخلافة :

لما توفي المهدي خلفه عبد المؤمن في قيادة الموحدين. ومع عبد المؤمن بدأت الخلافة تتكون، ومن خلال الممارسة العملية بدأ شكلها يتبلور. لقد اختلفت الروايات في الكيفية التي تمّ بها استخلاف عبد المؤمن. فعبد الواحد المراكشي يقول: إن بيعة عبد المؤمن كانت بوصية من المهدي بحضور أهل الجماعة وأهل خمسين⁽⁴⁾، غير أن مؤرخي دولة الموحدين لم يذكروا شيئاً عن هذه الوصية، ولكنهم يروون رواية لا تنفي الوصية ولا تثبتها، فهم يقولون أن بعض أصحاب ابن تومرت (وهم يختلفون في الأسماء) بايعوا عبد المؤمن ببيعة سر، وكنمو وفاة المهدي حيناً من الزمن، (ويختلفون فيه)، ريثما استقر الأمر لعبد المؤمن، فأعلنوا الوفاة والبيعة معاً⁽⁵⁾. ولكن صاحب الحلل وابن خلكان

(1) أعز ما يطلب ص 252.

(2) المصدر ذاته ص 245-246.

(3) ركز ابن تومرت في الفصل الذي عقده عن الإمامة على الطاعة في كثير من الفقرات راجع

أعز ما يطلب ص 243-255.

(4) المعجب 194-196، ويبدو أن ابن الأثير والنوري وابن خلدون أخذوا هذه الرواية عنه أنظر

الكامل ج 10 ص 578، نهاية الأرب ص 196، العبر ج 6 ص 472.

(5) راجع أخبار المهدي ص 81، نظم الجمان ص 130، 168، 209، البيان المغرب (ط: دار

الثقافة) ج 4 ص 84، روض القرطاس ص 120-121.